محمد شـرگي

الجســد المصــلوب

أخيرا ها هي ! العنقاء التي ناديتها بالليل وبالنهار راجيا منها مغادرة وليلي ولو للحظات ! ها هي تقترب مع اقتراب غروب شمس هذا النهار. تقترب بتؤدة وتأنٍّ ناظرة حولها في حذر. تقترب ناثرة حولها ــ وحولي أنا أيضا ــ جو المغرب العتيق. وفي كل خطوة تخطوها ترتسم على الرمال الأقواس والأسوار، وتنجلي حقول القمح ومغارس الزيتون ؛ وعند كل نظرة تجاهي أرى في ألق عينيها مياه البحر على شاطئ اللكسوس. تقترب ولا تتوقف، كأن هجرة القرون لم تكْفِها ولم تُتْعِبْها. كلا لم تتعبها. ها هي تُحاذيني، حتى أني أسمع عند ارتعاشها هَمْسَ الأصوات التي التقطَتْها في سفرها الأزلي. وها هو الفضاء حولي / حولنا، المسربل بغِلالةِ الغروب، يمتلئ تدريجيا بالصخب؛ وها هي الرمال الملساء تشهد انزلاق الأزمنة بعضها تجاه بعض.

* * *

أنا العنقاء والصحراء المثقلة بالمغرب العتيق. وانزلاق الأزمنة المتنافر، والناتج دوما عن حركات العنقاء، لا يكُفّ عن تكثيف الفضاء وشحنه بصور وخطوط ووجوه متداخلة. ها هي وليلي تتداخل في اللكسوس. ها هي الصور المائية من مجال شالة تحل بجانب دماء القرابين في أضرحة الجنوب والشمال. ها هي هجرة الآلهة تتتابع الى هذه البلاد، ثم داخلها تستمر في كل اتجاه. ها هي الآثار الوثنية الرازحة تحت الصمت الأركيولوجي تفجر الأرض وتعلن عن وجودها. ها هي رائحة الغنباج والخزامى تختلط بكافور الشرق وعطر الرومان. وهاهو، أخيرا، جلجامش يصل بعد سفر سرداني الى عصر يوبا الروماني.

يصل جلجامش ويخترق عصر الامبراطور يوبا. بكل وسامته وجرأته يخترقه، فتطرأ على جو وليلي العام تغيرات محسوسة. محسوسة بحيث لم يتردد خازن أسرار الأمبراطور في التنبيه اليها في أول مجلس امبراطوري : « مولاي، منذ حلول شاب غريب بأرضكم السعيدة، تغيرت طباع رعاياكم : أخذ تفانيهم في العمل يقل، واستماعُهم لكهنة المعابد يضعُف، كما أن إقْدامهم في الحرب اعتراه خور ملحوظ. والمريب حقا أن يرافق كلَّ هذا اهتمامٌ طارئ بالأجساد. كأنهم يا مولاي يرومون حقا استرداد أجسادهم التي وهبتها الأرباب لكم ! وقد قبض حراسكم على ذلك الشاب وهو ينادي قرب قوس « كركلّا » أن فكوا الحصار عن أجسادكم أيها الناس !

إنْتَرَ الامبراطور واقفا وضرب بقدمه أرض المجلس. وبحركة سريعة التفت نحو رئيس الكهنة الممتقع اللون وقال له بحنق :

ــ أهذه هي نتيجة إغداقنا على المعابد ! وحقي ما راج هَلْسُ ذلكَ الدخيل الا بسبب تقصير الكهنة ! أتعارض في هذا أيها الكاهن الأكبر ؟؟

ازدرد رئيس الكهنة ريقه وقال بصوت خافت :

ــ مولاي ! لا أبقت الأرباب على من يُقَصِّر في خدمتكم ! وها أنذا أرجوكم إلْقاء هذا الأمر على عاتقي، ولَكُم علي تصفيته في وقت وجيز..

فنظر يوبا صوبه بتشكك ثم سأله :

ــ وما ستفعل ؟

فأشرق وجه رئيس الكهنة قليلا وقال بنفس الصوت الخافت :

ــ سأستفتي الألواح القديمة يا مولاي !

عند ذلك التفت الامبراطور ناحية خازن الأسرار وقال :

ــ ضاعفوا الحراسة على ذلك اللاجئ. وغدا مساء أحْضِروه لنقضي في أمره. (ملتفتا الى رئيس الكهنة) غدا مساء، أليس كذلك ؟

فأحنى هذا الأخير هامته في خشوع وغمغم :

ــ بلى يا مولاي..

* * *

(مساء اليوم التالي. رئيس الكهنة ماثلا أمام الامبراطور يوبا، وعلى مقربة منه قرفص جلجامش مُصَفَّداً في الأغلال.).

رئيس الكهنة : مولاي ! ما عز مطلبكم مرة أخرى على الألواح؛ (يُخرج من تحت عباءته لوحا ويتابع) ها هو هذا اللوح يُفْتيكم في أمر هذا الطريد (مشيرا الى جلجامش) الهارب من الألواح السومرية. (ثم يقرأ في اللوح) :

الجسد المشبوه والمتمرد
ينفتح ويهدد باقي الأجساد
بالانفتاح
لذلك يُعَفَّرُ وجهُ
صاحبه بالدم الشهريّ

للنساء من مختلف الأشكال
ويُصْلَبُ بعيدا عن
المكان.
يعود الى انغلاقه فيعود
لباقي الأجساد سكونها
وينتهي التمرد

يوبا (بفرح) : الدم الشهري ؟ أمره ميسور ! (ينادي أحد الخدم ويخاطبه (اذهب فورا الى القهرمانة وقل لها تأمر النساء ألا يغتسلن. (يذهب الخادم، فيلتفت صوب جلجامش وقد علت شفتيه ابتسامةُ شماتة) سننتهي من بلائك، وعما قريب يسود الناسَ أمنٌ !

جلجامش (هاتفا لنفسه) : أي مركب ركبت ؟ أي ضياع ألقيت بنفسي فيه ؟ الهارب من الألواح يضيع. الهارب من الألواح يُقْبَض عليه ويفقِد اسمه الشخصي فيحترق. (مخاطبا صورة صديقه انكيدو) أنكيدو، ابق في ألواحك : هناك تتمتع باسمك، وفي ذات الوقت تلبس أوجها عديدة وتتحرك بحرية. انكيدو، اياك وفراق الألواح ! لا جدوى من سفر يكون مآله فقدان الاسم الشخصي فالاحتراق ! أجل، القبض ومصادرة الاسم يحرقان، يقتلان. فلتعلن مأتمي في الألواح يا أكيدو !

(تدخل مجموعة من الحراس وتحمل جلجامش الى القهرمانة التي تلطخ وجهه بالدم الشهري لكثير من النساء. وبعد ذلك يساق الى ظاهر المدينة حيث يصلب).

* * *

تثاقلت حركة انزلاق الأزمنة؛ وازداد تثاقلها حتى توقفت. عند ذاك، انفصلت العنقاء عني وتراجعت القهقرى. وعند كل خطوة خلفية تخطوها تتخلخل كثافة الصور والخطوط والوجوه وتتبعثر. وَحْدَهُ الجسد المصولب على لوح خشبي فوق الرمال بقي متماسكا. وما غابت العنقاء عن ناظري حتى لم يبق سوانا والظلام والصحراء.

ألسنا ــ أنا والجسد المصلوب والصحراء ــ داخل الظلام؛ داخل الليل ؟ بلى. واذن، هو ذا نظام الأحاسيس الحميمة يلُفنا. يلفنا بلونه الأسود الساتر من تلصص النهار. يلفنا بكل الخواطر التي يثيرها ويغذيها : خواطر الراحة، والعودة، والتغلغل، والاتحاد. يلفنا رغم أنف ثنائية الانفتاح / الانغلاق التي زعم يوبا أنه أسسها. يلفنا ويجمع أصواتنا في قناة واحدة، مبشرا بميلاد تداخل دلائلي للأصوات.

إذن لن يتكلم أحد. أي لن يتكلم أحد بمفرده. داخل الصوت الواحد نحن مدعوون لحفلة للأصوات. أما الصوت الأوحد، المتكلم والمالك لكلامه، فقد مات منذ زمان. صوتي هو أيضا صوت الصحراء وصوت الجسد المصلوب؛ وليس هذا الحديث سوى مظاهرتِهِ الْهَذَيَانية، فليبق الهذيان ! وليستمرّ الْهَذَيان :

أقول ــ نقول : قبل أن يسحب الجسد المصلوب ليُطَخَّ بالدم الشهريّ، رمى يوبا صاحبه بابتسامة شماتة. مع هذا الابتسامة نريد أن نقيم. ماذا تعني ؟ التحدي، والصلف، وأيضا الثقة في أن مصيرا سيحدث وأن الذات هي صاحبته. لكن هل يوبا هو الذي صلب هذا الجسد ؟

كلا ! ولا هو كاهنه البتة ! ولا هي الراحة ! من إذن ؟

أقول ــ نقول : إن الذي اغتال الحياة داخل أليافِ هذا الجسد هو شبح رهيب يدعى « الترتيب ». « الترتيب » هو الذي عليه أن يَمْثُلَ للحساب في جوف هذا الليل. وهناك ما يستحق عناء إقامة جلسة : ان « الترتيب » هذا ذو سوابق عديدة ليس اغتيال جلجامش إلا إحداها. فلْيُسْتَدْعَ لنعرف من يكون ؟

ها هو ينبعث من تضاعيف الظلام مشيرا إلَيَّ / إلينا جميعا، وصارخا بخسارة كادت تمزق سَجْفَ الليل :

ــ أنا أنتم ! أنتم باستثناء الصحراء الملساء !

أندهش ــ نندهش : نحن ؟!

ــ أجل أنتم ! أقولها بكل شبر في جسدي ! جسدي الذي ليس سوى حاصلٍ لما تكرهون وما تحبون، وما تنبذُون وما تستحسنون، ما تحتقرون وما تُعِزّون. جسدي الذي ليس سوى « أرشيف » لملفاتكم المعدة بهدوء وتلذذ، ومرتع لثنائياتكم البليدة العمياء ! أنا الكراهية والحب، الاحتقار والاعزاز، الإثم والفضيلة، اللامعنى والمعنى، المدنس والمقدس، الشيطان والإلاه ! وهذه جميعها أنتم ! صالبوا جلجامش الحقيقيون، وأنتم واضعوا الدم الشهري على وجهه. وعلى هذا الليل، إن كان مُنْصفا، أن يعلن براءتي !

وأي صوت عميق هذا الذي يتعالى من قلب الليل هاتفا : إنصافا ! إنصافا !

* * *

سأواصل ــ نواصل، رغم الجرح الدفين الذي نكأته صيحة « الترتيب » في أعماقي ــ أعماقنا. وربما بفضله. لم لا ؟

ها تَحَوُّلٌ طرأ وينبغي تسجيله : لقد تغيرت وضعية الجسد المصلوب. من الممد على اللوح الخشبي الذي كانه قبل قليل، أصبح الآن حالًا في كل واحد منا.

لذلك، ما لم يتم الانتباه الى جغرافية الصحراء الملساء، العاطلة من نقاط الترابط، سيظل جرح « الترتيب » ينزف في أجسادنا جميعا، مضاعفا بذلك عذاب الجسد المصلوب داخلنا.

لذلك، ما لم يتم الإنصات بعمق الى أصوات التنقلات الحرة لذرات الرمال، سيظل الدم المهاجر من النساء الى الوجه يضطرب ويُجْهِش بالبكاء، محركا بحدة أكبر آلة الثنائيات فينا.

لذلك ما لم نحفر في ذاكرتنا بأحرف نارية أن « الترتيب » قد بُرِّئَ في مرافعته الصحراء الملساء، سيزداد إيغالنا في متاهة أحكام القيمة التي نحن أسرارها التقليديون، مبتعدين بذلك عن أمل تحطيم التمييزات الاجرامية !

لذلك أخيرا ما لم نسع إلى التعرف على « المرتِّب » داخل كلّ منا، سندأب على تحميل وزر كل المفارقات، كما كدنا نفعل الليلة، لـ « الترتيب »؛ الترتيب الذي ليس سوى ناتج عمل ومتن تفكير.

هل أعفي يوبا من وزر الجسد المصلوب ؟ كلا ! ولا أعفي كاهنه، ولا اعفيت ألواحه ! بالعكس، إن التعرف على « المرتِّب » داخل هؤلاء جميعا سيزيد في تعقيد ملف القضية؛ لأنه على غرار المكائد الدائرة بين البشر، بل غالبا كأسباب لها، ثمة مكائد لا تقل ضراورة بين « المرتبين » داخلهم. وإذن لا بد من قانون جنائي للمرتِّبين أيضا... لعل الجسد المصلوب فينا يجد راحته ذات يوم؛ وراحته هي فك انغلاقه..

محمد شركي

فاس / شتنبر 1981